البـلادُ الخيّـرةُ

جاء صاحِبَي من القرية المجاورة ، وهما ضيفان عزيزان عليَّ ، فقلت في نفسي: أَما كان الأَجْدَرُ بهما الحُضورُ في وقتٍ مبكرٍ حتىٰ أتمكَّنَ من الاحتفالِ بشخصيهما وتقديم الواجب اللائقِ بهما. فقال أحدهما: لا عليك يا صديقي فنحن نأكلُ ما حَضَرَ ، فقلت إنها الفطائر الساخنة المحشوَّةِ بالحُمَّيْضِ والفِطرِ والكِشْكِ والمُغَمَّسَةِ بالزيتِ والسمن البلدي ، ولكن انتظروني بعضَ الوقتِ! ، وفي هذه اللحظةِ حَطَّ سِرْبٌ من طيورِ الزَّرزورِ علىٰ شجرةِ اللوزِ قربَ دارِنا ، وهكذا تناولت بندقيةَ الصيد التي تركها والدي عند وفاتِه وعَبَّأْتُها بِطلقتين ، وتقدمت خُطُواتٍ وأَطلقتُ عليها رصاصاتٍ مُتَنَاثِرةٍ ووقَعَ منها الكثيرُ ، وتقدَّمنا نلتَقِطُها ونذبَحُها ونُحَضِّرُها للقَلي بزيت الزيتون ونشوي بعضها داخل الفُرنيات ، وكانت وليمةً سريعةً لذيذةً ، قدَّمْتُها لصاحبيَّ العزيزين فشكرنا الله علىٰ هذه الخيراتِ وتمنينا دوامها علىٰ الناس.

كان في دارنا مغارةٌ رومانية أو أَقدم ، تمتَدُّ إِلىٰ عشرات

الأَمتار تحت الصخور ، وجئتُ بِزوجٍ من الأرانِبِ وأسكنتها فيها وعَلَّمتُ كلبي أن يحميها من القِططِ والنسانيس وغيرها ، وكانت تخرجُ منها في كلِّ أربعين يوماً دُفعاتٍ من مواليدَ جُدَدٍ ، حتىٰ صارت أعدادها بالمئات وهي تخرجُ وتسرحُ في الكرمِ وتأكلُ من العشب البريّ وما نُقدِّمُه لها من الطعامِ الزائِدِ عن حاجاتنا ، وصار كلُّ من يطلبُ يحصلُ علىٰ زوجٍ أو أكثر منها ، فيطهون لحماً وبُرغُلاً ولبناً فيأكلون ويحمدون الله علىٰ هذه الخيرات التي وَفَّرَها لهم في هذه البلاد الغالية .

وإنك لن تعدم وسيلةً لتجدَ ما يسعدك ويكفيك من أسماك بحيرة طبريّا التي لا تبعدُ أكثر من ثلاثة كيلو مترات ، والتي يُحضرها الصيادون طازجةً أو حيّةً .

وغالباً ما كنا نذهبُ إلىٰ وادي السمك ونُمسِكُ ونَحوزُ علىٰ هذه الأسماك بَعْد مُلاحقتِها تحت الصخور أو في الغُدران ، وتكون في موائدنا شهيةً مقليةً أو مشويةً .

أما الأرانبُ البريَّةُ ، فتكثُرُ في الحقولِ وبين الشجيرات والأحراشِ وهي تتوالدُ وتكبرُ وتصبحُ هدفاً للصَّيَّادين ، وكذلك الغزلان التي كانت تسرحُ في شِعاب الجبالِ وعند الوديانِ والسهول ، ولحومها من أطيبِ ما تناوَلْنا وأَكَلنا وطبخنا في موائدَ يغمرها سمنٌ بقريٌّ أو زيت الزيتون المفيد .

وأما منتجات الألبان والأجبانِ فهي وافرةٌ بقدرِ وفرةِ العُشبِ

والكَلأِ فَتَفيضُ من القُدور والجِرار ، وقطعانُ البقرِ والجاموس والماعز ، وتُدِرُّ حليباً بقدرِ ما تتواصلُ مع رُعاتها وحلاَّباتها ، وغالباً ما كانت الحلاّبةُ تنادي هذه الحيوانات بِحَنانٍ وتُغَنّي لها ألحاناً وهي تحلبُها ، ومنهن من تُسمي كلَّ بقرةٍ باسم مُحببٍ فتطربُها فتملأ منها الأواني ، وكانت النيران المشتعلةُ من الحطب تحت القدور فتغلي ، ويكثر الخير فيشبعُ منه الأهل والضيف .

أما الخضار والفواكه فهي متعدِّدَة باللون والطعمِ والرائحةِ وتدور علىٰ مدار العام ، فأنت تجدُها في السهلِ والجبل والوادي الذي ينخفِضُ في هذا الغور العميق ، في شاطىء البحيرة التي تهبِطُ إلىٰ ما دون ١٥٠م تحت مستوىٰ سطحِ البحرِ ، وهي كثيرةٌ في قرىٰ البطيحة العشرة والمنخفضات المتفرعة عنها ، وكانت تنضجُ في فصلِ الشتاءِ والربيع حيث تُسمّىٰ البواكير وتُصدَّرُ إلىٰ دمشق والمدن السورية .

وفي الطبيعة أنواعٌ كثيرةٌ من النباتات البرية المغذيةِ وهي مطبوخةٌ أو خضراء طازجة ، منها الأرضي شوكي البري والعكوب والشمّرا والحُمّيض والهندباء والزعترُ ، وزهرة الكلخ والجرجير والخبيزة والمرار والجلثون ، والكزبرة والحويرّةُ والحُرفيش والسّناريا والقُرّا والدريهمة والقرصعنا والقريص ، ولسان الثور واللوف والجْعدَة هذه النبتة التي يبحث عنها طيرُ الكركي فهي طعامه المفضَّلُ ، وثبتَ أنها تُفِيدُ مرضىٰ القلب ، وهناك التوت البري وثمرُ الدوم والزعرور والبلوط والخروب ،

أما المشمش البري الذي ينبتُ علىٰ سطح الأرض وثمرةُ المدوَّرُ والمتراكم وسط نباتٍ سطحي ، وعندما يَنضُجُ ويصبحُ أصفر يملأُ الجوَّ برائحةٍ زكيَّةٍ تشمُّها من مئاتِ الأمتارِ وطعمُه لذيذٌ كطعمِ المشمشِ.

أمّا الطيورُ البرّيَّةُ فحدِّث ولا حرج ، ففي الحقول والبساتين والشعاب مئات الأنواع منها: الدوري والزرزور والدُّرَّج والطيطبوز والفِرّي ، وأم طواق والزّرعي وأبو قنبرة (الجَعْطون) والحُمَّرَة والبليقي والعليلي ، والظُّلل والحسون والهدهد والحمام والسنونو ، وكثيرٌ من طيور البحرِ عند البحيرة ، والشحرور والبلبل الذي يُعشعِشُ في الوديان في بساتين الرمان والتين ، والحنيني والقِرْقِس وكلها تعزفُ ألحاناً جميلةً تشنِّفُ الآذان وتعطي المنظرَ بَهاءً ومناظرَ حسنة.

كما أن الحجل يعيش في مجموعات علىٰ سفوح الوديان وبين المنحدراتِ ، ويبْعَثُ ترانيمَ يَتَرَدَّدُ صداها في رؤوس الجبال وبين المنحدراتِ عند غروبِ الشمس وطلوعها.

أما أزهار الجولان فهي متنوعة ومتعددة وعطرة وفواحة حتىٰ أن للجولان أزهاره الخاصة الفريدة كزهرةِ السوسن التي كانت تتفتح في الربيع والصيف ، ولها الألوان المزركشةِ الزرقاء والبنفسجية والبيضاء ، وكانت تغطي حديقة دارنا في قريتنا الساحرة العالية ، أما الأقحوان المزهو بطوله وألوانه البيضاء والصفراء ، وكذلك شقائق النعمان المنتشرة في الحقول والجبال

والوديان ، وكأنها بساط سندسي أبدعه خالق الكون ، أما البنفسج الفواح بمنظره المبهج للنفس والمفرح للأرواح ، يغطي نبات البابونج بأزهاره الصفراء العطرية المفيدة لأغلب الأمراض .

وهناك الزنابق المتنوعة المبعثرة في كل مكان في الوادي والسهل والجبل وعلىٰ المقابر حيث يزرعها السكان فوق مدافن الأحبة ، وينتشر أزهارُ المنثور والبنفسج والياسمين وورود الجوري والخبيزيات المتنوعة ، والتوليب والقرنفل والنّفل والخُزامىٰ الزعتر والإكليل والدفلة والعبهر ، أما السّوس فينبت بكثافة في بعض المناطق خاصة في الوادي وعلىٰ ساحل بحيرة طبريا ، أما الطيون فينتشر حول منابع المياه والعيون حتى إن عيناً منها سميت عين الطيون ، فهذه البلاد مخزناً من الأعشاب السحرية والطبيعية المفيدة كالزعتر والنعنع البري ، والأكاليل كلها والبابونج والمليسة ونباتات عطرية وللتداوي تعدّ بالمئات ومن الصعبِ إحصاءها .

* * *